بلاغة وصف الفضاء الجغرافي في رحلة الورثيلاني

الموسومة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"

د/ رويدي عدلان قسم اللغة والأدب العربي-كلية الآداب واللغات-جامعة جيجل

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-03-08	2018-06-27	2018-07-19

الملخص:

يعالج هذا المقال عنصرا من عناصر أدب الرحلة وهو الفضاء الجغرافي، حيث يطرح بلاغة وصف هذا الفضاء في الرحلة الجزائرية، وتمثل الرحلة الورثيلانية نموذجا لهذه الدراسة، التي قدمت وصفا فريدا للكثير من الأماكن الجغرافية في المغرب والمشرق العربيين.

-الكلمات المفتاحية: الأدب-الرحلة-الفضاء-البلاغة-الجغرافيا-الوصف.

Abstract**:**

This article treats an Element of the journey littérature Element , which is the geographical space,It is eloguently describing this space in the Algerian journey .
and the wartilanian journey is such a model of this study which provided a unique discription of many geographical places in the western and eastern Arab.
Key words :Littérature-the journey-space- Elequence-Géographie-description.

توطئة:

يعتبر خطاب الرحلة من الخطابات السردية التي تختزن كما هائلا من الجماليات، خصوصا على مستوى السرد والوصف، ويمثل هذا العنصر الأخير أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها البناء المعماري لأدب الرحلات، خصوصا ما يتعلق بتشكيل الفضاء وهندسته، التي تتطلب أدوات وميكانيزمات دقيقة تسهم في وصف هذا الفضاء، الذي يقوم على الحركة والانتقال عبر مختلف الفضاءات الحضارية، وكل هذا من أجل تقديم نص سردي يثير إعجاب المتلقي، ويخلق نوعا من المتعة الفنية والجمالية.

ويعد الفضاء الجغرافي، من الفضاءات التي نالت اهتماما كبيرا، من قبل الرحالين الجزائريين كيف لا وهي تمثل محطات مهمة في حياة هؤلاء الرحالة وأسفارهم المختلفة، لذلك أولوا وصفها عناية خاصة،

وأضافوا إليها من مخيالهم الخاص، فامتزج فيها المتخيل مع الواقع، وتعد رحلة الورثيلاني الموسومة "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" من الرحلات التي تحمل هذا الوصف، وهي من خلال العنوان تحاول التأريخ، ليس لحياة الشخصية فقط والأشواط التي قطعتها في حياتها، وإنما التأريخ لتلك المدن التي زارها الورثيلاني، بكل ما تحمله من قيم ثقافية وحضارية، سواء داخل الوطن أو خارجه، فالرحلة على تنوع أسفارها وفضاءاتها المكانية، رسّخت تاريخا ثقافيا، وآخر اجتماعيا منفتحا على تأليفات عديدة تتقاطع معها، وبفعل تراكمها الكمي والنوعي، صارت تشكّل نصا فريدا، تجاوز إطاره الجغرافي ليصبح نصا كونيا بامتياز، يخترق مختلف الحدود والآفاق، لذلك فضلت أن أتناول في هذا المقال موضوع الوصف وبلاغته في تشكيل الفضاء الجغرافي في هذه الرحلة، وهذا انطلاقا من مجموعة من الإشكاليات التي فرضت نفسها عليّ في هذا البحث ومنها:

أين تكمن بلاغة وصف الفضاء الجغرافي في رحلة الورثيلاني؟ وأين تكمن جماليته؟ وكيف أسهمت في الكشف عن مختلف القيم الإيديولوجية والحضارية الكامنة في هذا النص؟

من هذا المنطلق أردت الإجابة على هذه الإشكاليات، من خلال التعريج على نقاط مهمة تتعلق بهذه الشخصية ومسيرتها الحياتية، وبالرحلة نفسها، من أجل الولوج إلى الأبنية اللغوية داخل النص وإماطة اللثام على مضمراته ودلالاته الخفية، التي تخفي الكثير من الأنساق الثقافية التي تسهم في بناء الفضاء الدلالي للنص.

1-التعريف بالرحالة:

ولد الحسن بن محمد السعيد في بني ورثيلان، ومن ثم نسبه الورثيلاني وهذا سنة 1125هـ وتوفي بنفس المكان سنة 1193، نشأ نشأة فقيرة أساسها التقشف الصوفي، دخل المدرسة القرآنية في سن مبكرة، حيث حفظ القرآن الكريم، كما نهل من الزوايا مختلف العلوم كالفقه والنحو والتصوف والتوحيد، كما نال حظا وافرا من الأدب والعروض وخصوصا التاريخ، الذي كان من أهم انشغالاته العلمية إلى جانب التصوف، كان يجمع بين علوم الظاهر والباطن، وكان يسير على مبادئ الطريقة الشادلية[1]، سافر إلى المشرق فحج ودخل مصر القاهرة، والتقى بعديد علمائها، واستفاد وأخذ العلوم العالية، على يد مجموعة من العلماء ومنهم الصعيدي والحفناوي والجوهري والصباغ والعمروسي وخليل الأزهري وعمر الطحاوي والرياني والإشبيلي وأبي القاسم الربيعي والهاشمي وغيرهم كثير[2]، ترك الورثيلاني رصيدا هائلا من الكتب

والمؤلفات، وأغلبها كانت عبارة عن مخطوطات في الفقه والتوحيد والتصوف، ومنها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمان الأخضري في التصوف وحاشية الكستاني وكتاب المرادي، وقصيدة تتكون من خمسمئة بيت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[3]، وأعظم عمل ألفه في حياته كان في التاريخ والأخبار، وهذا من خلال رحلته المشهورة والموسومة" نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار"، والتي تبين عن حس تأريخي مرهف لدى هذا الرجل، والرحلة من خلال هذه التسمية تشبه كتابة التاريخ، كما تحمل العديد من الأخبار حول الأقوام السابقة والرجال الصالحين.

يرى أبو القاسم سعد الله أنّ الورثيلاني حج مرتين أو ثلاث(1179/1160/1153)، وعند الحج قصد مناطق عديدة في الوطن وخارجه، وقد وصفه وصفا مفصلا في الرحلة، كما وصف أهل هذه المناطق وعاداتهم وتقاليدهم وصفاتهم وبنيانهم.

وقد ترجم له العلامة والمحقق الكبير أبو القاسم الحفناوي في كتابه" تعريف الخلف برجال السلف" وأشاد به كثيرا في قوله «هو الإمام العالم العامل العلامة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام. الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول(...) حامل لواء الشريعة والحقيقة ومعدن السلوك والطريقة، ذو التآليف المفيدة والتصانيف العديدة، العالم الرباني والقطب الصمداني والشريف النوراني سيدي الحسين الورثيلاني»[4]، وهذا المدح والتثريب من العلامة أبو القاسم الحفناوي لا ينمو عن فراغ، ولكن عن معرفة دقيقة لسيرة هذا الرجل العظيم، الذي قدّم صورة مشرقة عن مختلف الأصقاع الجزائرية والعربية، فكان شاهد زمانه عن كل الأحداث التي عرفتها البقاع العربية أنذاك، هذا دون أن ننسى فضل ودور هذا الرجل في نشر العلوم المختلفة، سواء الدينية أو الدنيوية منها، لذلك لا يمكن لأي دارس أو باحث في التاريخ الثقافي للجزائر أن يتجاهل دور هذا الرجل في تنوير المشهد الثقافي في تلك المرحلة المهمة من تاريخ الجزائر، والتي عرفت نوعا من الركود الثقافي، الذي يستلزم رجالا علماء، وشيوخا كبار كالورثيلاني، بفعل نشاطهم الكبير في نشر قيم الثقافة والحضارة في مختلف الفضاءات الجغرافية، وتوعية تلك الشعوب وإرشادها وتعليمها وتوجيهها، هكذا أراد الحفناوي أن يؤرخ لهذه الشخصية، إدراكا منه بعظمتها وفضلها على مستوى الساحة الدينية والثقافية في الجزائر خلال تلك المرحلة.

2-التعريف بالرحلة:

تعد رحلة الورثيلاني من الرحلات الجزائرية القليلة في العصر الحديث، التي تجمع الكثير من الحقائق التاريخية، ليست فقط التي تتعلق بشخصية الورثيلاني ومسار حياته، وإنما تمثل سجلا حافلا بالأحداث التاريخية التي تخص البلدان والأقوام المختلفة وصفاتهم وعادات شعوبهم، رحلة قال عنها المؤرخ والأديب أبو القاسم سعد الله بأنها« تعتبر موسوعة أخبار عن جزء كبير من العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر ميلادي(18م) فهي من المراجع التي لا غنى عنها في هذا المجال وكان تكرار حججه وإتقانه للعربية ومعرفته بعادات الشرق والغرب قد جعلت الورثيلاني حكمنا منصف على العصر وأهله في كثير من المناسبات»[5]. وقد استمد الورثيلاني مادته الأساسية من مصادر عديدة ومنها كتاب "عنوان الذراية" للغبريني وكتاب "النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة" و"الوغليسية" بشرح عبد الكريم الزواوي، و"الأدلة السنية" لابن شعاع وغيرهم، وقد أراد في البداية كتابة رحلة عظيمة وفريدة تكون مفخرة لبلده، لكنه وقع في العديد من الهنات والمطبات، من خلال كثرة النقل والاستطراد وتداخل معلوماته، ولكن المؤرخين والعلماء لا يعلمون إن كان الورثيلاني قد ألّف هذه الرحلة دفعة واحدة، أم على مرات عديدة فأبو القاسم سعد الله ينقل ما ذكره المؤلف، أنه قد ضاع منه دفتر في ليبيا أثناء عودته.

ويشتمل قسم كبير من الرحلة على أخبار المتصوفة والصالحين، كما لا تخلو الرحلة من الحكايات الخرافية والغيبيات، ففيها ذكر لكرامات الأولياء الصالحين والشيوخ، وذكر لأحداث تاريخية تخص فتح بلاد المغرب، خصوصا في الجزء الثالث منها، كما تقدّم العديد من سير العلماء والمشايخ، كما تحتوي على قصص الأنبياء، كما لا تخلو من ذكر لغزوات الخلفاء الراشدين وتاريخهم وأيامهم، وتاريخ خلفاء الدولة العباسية، وغرائب البلدان وأعاجيبها، كما تحتوي على نصائح دينية للحجاج والأماكن التي تزار في مكة، وكبقية الرحلات الأخرى تحتوي الرحلة على مجموعة من النكت والطرائف، وهذا الجرد القصير لمختلف أجزاء الرحلة لا يمكنه الوقوف على كل جزئيات الرحلة، التي تعد بحق عمل فريد يضاف إلى إنجازات الرحالة الجزائريين وجهودهم الكبيرة في التأريخ لمراحل مهمة من تاريخ الجزائر والبلاد العربية بمختلف بقاعها وأصقاعها، وتعدد ثقافاتها وعلومها، وتمايز شعوبها وعاداتها وتقاليدها.

3-الوصف كمكون سردي ودوره في تشكيل الفضاء المكاني داخل الرحلة:

تعد اللغة المعبر الوحيد لرسم المكان داخل النص الرحلي، فهي التي تحوله إلى فضاء مرئي، وهذا وفق استراتيجية سردية معينة، وهي التي تعين الرحالة في بناء أمكنتهم، ويلعب الوصف دورا كبيرا في تقديم

المكان للقارئ، ودوره لا يقل أهمية عن السرد، لذلك أولاه جيرار جينيت أهمية قصوى في تشكيل بنية المكان، منطلقا في بحثه حول طبيعة الوصف من فكرة أساسية، مفادها أنّ الأشياء يمكنها أن توجد بدون حركة ولكن الحركة لا توجد بدون أشياء.

والوصف هو الأكثر لزوما للنص الرحلي من السرد، والأسهل منه لكنه لا يفارقه أبدا، فليس الوصف سوى خادم للسرد حسب جينيت، الذي يرى أن هناك أجناسا سردية كالملحمة والحكاية الخرافية والقصة القصيرة والرواية يمكن للوصف أن يحتل ضمنها حيزا كبيرا « بل الحيز الأوفى ومنى غير أن يكف طواعية أن يكون مجرد مساعد للسرد في حين لا وجود لأناس وصفية»[6]، فالوصف هو عنصر بنائي إلى جانب السرد، لكن يحافظ على استقلاليته وتفاعله مع بقية الأنساق الحكائية الأخرى، لكنه يقتضي توقف في حركة السرد وصيرورة الحدث« لذلك يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني»[7]، وفي بعض الأحيان يكون هناك إبطاء لوتيرته، « مما يحدث خللا داخل الإيقاع الزمني للسرد ويحمله على مراوحته مكانه دون أن يفرغ الوصف من مهمته لكي يستأنف مساره المعتاد»[8].

فالوصف يؤدي وظائف مهمة داخل البنية السردية للرحلة، وقد حدد حميد لحميداني وظيفته في وظيفتين أساسيتين: «الأولى جمالية (تزيينية) ويشكل الوصف فيها استراحة في وسط الأحداث السردية، أما الوظيفة الثانية فهي الوظيفة التوضيحية(التفسيرية) حيث يكون للوصف رمزية دالة على معنى معين في سياق الحكي»[9]، مما يسمح للقارئ بمعايشة هذا المكان، كما يمنحه مجالا واسعا للتأويل وأفقا رحبا للقراءة، التي تكتمل بها الصورة النهائية للأمكنة، لكن عالم الرحلة هو عالم مختلف عن باقي العوالم الأخرى للأجناس السردية، عالم ينتقل بخيال القارئ إلى متاهات أخرى، لتبقى اللغة الوسيط بينهما، فيتحول خيال القارئ إلى فضاء تتشكل فيه صورة ما عن ذلك المكان« فمقولة المكان لا تولد في البياض المكاني في الصفحة الشعرية المطبوعة بل في خيال القارئ»[10]، على اعتبار أنه يعيد تشكيلها في معمار جديد، من خلال استثمار مختلف القدرات التخييلية التي تساهم في بناء صورة مكتملة ونهائية عن تلك الأمكنة، وهذه الصورة تفتح باب التأويل والقراءة.

والوصف يقوم أساسا على الحواس التي تساعد على توسيع الرؤية، بإشراك واستثمار مختلف الحواس من سمع ولمس وشم، وعلى وجه الخصوص الرؤية البصرية، هذه الأخيرة« تظل العنصر الحاسم في عملية الوصف»[11]، الذي لا ينفصل على البناء الكلي للرحلة، وإن كانت المقاطع الوصفية مستقلة، ولكن برغم

استقلالها فهي توظف توظيفا جماليا في خدمة محور الرحلة، وإضفاء الظلال والدلالات على مسار السرد، ولكن هذا يتطلب كيفية اشتغال الوصف في الرحلة، ومراعاة المرجعيات الواقعية، لذا يصبح التأويل حتمية أساسية في مشاركة القارئ في بناء النص الرحلي« وجعل النص منفتحا على الذات القارئة وعلى البعد التاريخي والسياقات الاجتماعية والثقافية»[12]، وهذا يتطلب ثقافة خاصة من قبل القارئ ومعرفة بمختلف المرجعيات التي تساعده في فهم الفضاء الدلالي للمكان، ومن ثم الوصول إلى القيم الحضارية والثقافية والايديولوجية التي يختزلها هذا المكان.

4-بلاغة وصف الفضاء الجغرافي في الرحلة:

كانت البلاغة العربية تركّز على دراسة البنى التخييلية على حساب البنى الاقناعية، لكن مع تطور الدراسات البلاغية، وبالخصوص مع ظهور البلاغة الجديدة، أصبح الاهتمام بدراسة أساليب الحجاج وطرائق الاقناع، والذي عدّ مطلبا مهمّا عندهم، من خلال التركيز على الجوانب السيكولوجية التي تعمل على إعداد المتلقي وتهيئته لقول الحقائق، وتدخل بلاغة وصف الفضاء المكاني ضمن بلاغة إقناع المتلقي وتحفيزه على خوض غمار القراءة، وفتح أفق عديدة للتأويل، الذي يسهم في إثراء النص الرحلي بمجموعة من الدلالات والمعاني السياسية والأيديولوجية، التي تعطينا صورة واضحة حول البيئات المختلفة، على اعتبار أن الرحلات تنقل لنا تاريخية المجتمعات والحضارات، عبر عملية السرد المتتابع أحيانا والمتقطع في أحايين أخرى، وبهذه الطريقة يتمّ نقل الحقائق المختلفة للمجتمعات الانثروبولوجية منها والثقافية، وهذا عبر الفضاء اللغوي الذي يحيل بدوره إلى فضاء جغرافي تاريخي، هذا الذي يدفعنا إلى الحفر في البنى اللغوية التي تجسد الفضاء الجغرافي والدلالي على حد سواء، وهذا يتمّ عبر الوقوف على مجموعة من العناصر السردية، التي يعدّ الوصف أحد أهمّها، لأنّه يقودنا بعد ذلك إلى الولوج إلى مختلف المعطيات التاريخية لفضاء الرحلة عموما، ويتضافر عنصر الوصف ببلاغته الاقناعية مع العناصر الأخرى للسرد ليشكّلون مع بعضهم البعض جمالية وفنية، تثير عقل المتلقي وتستفزه، وتغريه بتتبع أحداث الرحلة من البداية إلى النهاية، خصوصا لمّا يمتزج التاريخ بالمتخيل، فيشكلان معا وليمة أدبية تفتح شهية القراء وتمنحهم فرصة الاستمتاع بالقراءة.

يبدأ الاشتغال السردي للكتل الجغرافية الواردة في نص الرحلة من مدينة عين الطير، ثم تستمر عملية المداهمة لمختلف البنى الجغرافية الأخرى، وهذا عبر سلسلة من المقاطع الوصفية لمختلف المدن التي مرّ

بها الرحالة في سفرياته المختلفة، وأمام الوقوف في كل مقطع تظهر براعة الورثيلاني وأسلوبه في عملية الوصف، ففي المقطع الوصفي التالي يصف لنا الرحالة مدينة تونس وما تحويه من آثار فيقول: « ولمدينة تونس سور يدور بها ويقال: إن دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وجامعها مليح الصناعة حسن الوضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحجاج هو ودار الصناعة سنة أربعة عشر ومائة وألف يطل عليها البحر وتونس في سفح جبل»[13]، ففي هذه المقطع الوصفي نلمس الكثير من الامور التي تتعلق بتاريخ هذه المدينة، وجرد لمجموعة من العناصر العمرانية، التي يمكن أن تخلق الدهشة والغرائبية، في دهن المتلقي، وترغمه على مواصلة رحلة القراءة عبر الفضاءات الجغرافية الشاسعة، وفي ثنايا التوغل والانتقال من مكان إلى آخر عبر ديناميكية متسارعة، ثم يقدم لنا الرحالة وصفا مفصّلا يجلب من خلاله شهوة المتلقي، ويغريه بزيارة هذا البلد الشقيق، من خلال جرد دقيق لأهم معالم المدينة، في أسلوب جميل يعتمد فيه السجع، الذي يخلق نغما موسيقيا عذبا يناسب حركات أحاسيسه وشعوره، فيقول:« وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم، وحالها كريم ووصفها نعيم، وطبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع والعاصي، والرحيم والقاسي، والمتيقظ والناسي»[14]، إنّ هذا الوصف المتتابع وباعتماد السجع الذي يلائمه تماما، يصبح الوصف عنصرا من عناصر التحفيز، التي تتضافر معها أيضا عناصر أخرى لتشمل مختلف العناصر الحضارية والأسطورية، وهذا من شأنه إثارة الغرائبية والدهشة لدى المتلقي وكسر أفق توقعاته، الذي ينتهي دائما عند نقطة معينة منتظرة، مما يفتح له أبواب الاحتمال والتأويل، ويقدم لنا مقطعا وصفيا آخر خلال زيارته لطرابلس، فيصف هذه المدينة قائلا: « ومدينة طرابلس مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، يضرب في سورها ماء البحر، وهو من حجر جليل من بناء أول، ومن طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة أيام، ومن جبل نفوسة إلى القيروان ستة أيام»[15]، هذا المسح الدقيق لهذا الفضاء الجغرافي يسهم في إغراء المتلقي على السفر والرحلة، فيحدد له المسافات الزمنية للانتقال عبر هذه الأمكنة بدقة، وهذا بالاتكاء على حاسة البصر والملاحظة العينية، التي تعدّ أكثر خصوبة ودقة في عملية الوصف، كما تكون أجدى لدى الرحالة، وأكثر فعالية وأمانة، في تقديم الحقائق المختلفة، التي تتعلق بهذه المدينة الأثرية. وهكذا تستمر عملية التحفيز الواقعي للمتلقي، وهنا تكمن جمالية الوصف وتتحقق بذلك بلاغة الاقناع، التي تلامس مختلف مراكز الاثارة والدهشة بالنسبة للمتلقي ويساعده على ذلك الخيال، الذي يحتفظ بمختلف هذه المراكز الحساسة، وفي مقطع آخر يقدم وصفا دقيقا لمدينة طنجة المغربية بعد حلوله

فيها فيقول: « ومدينة طنجة مدينة في المغرب قديمة على ساحل البحر، فيها آثار كثيرة، كبيرة وبينها سبتة في البر ثلاثون ميلا وفي البحر، وأول من فتحها عقبة بن نافع وقتل رجالها وسبي من فيها، وهي على شاطئ بحر الزقاق على القنطرة المعروضة إلى ساحل الأندلس التي لم يكن في العالم مثلها، وكانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس»[16]، يكشف لنا الوصف الدقيق للمدينة على إلمام تام بجغرافيتها، فمن خلال الانتقال عبر أرجاء هذا الفضاء المكاني، وأمام هذا التدفق السريع لهذه الكتل المكانية وتتابعها، والتي تحتكم إلى الأساس الجغرافي، وتتوزع على الفضاء اللغوي، والذي بدوره يحيل إلى فضاء جغرافي تاريخي، وهذا من شأنه أن يساهم في خلق الحوافز الازمة التي تحرك المتلقي وتثير وجدانه وخياله، وهكذا يشتغل الفضاء على مستوى الرحلة وفق محور ثنائي، يشمل الواقع الجغرافي من جهة وطاقات التخييل من جهة أخرى، وهو يختلف عن الأجناس السردية الأخرى كالرواية، فالفضاء في الرحلة لا يتأسس كما هو الشأن بالنسبة للرواية مثلا« بوصفه فضاء نصيا خالصا يوجد من خلال الألفاظ والكلمات وينتجه الخيال الحكائي فيما ينتج من عناصر أخرى ينهض عليها العالم الروائي»[17]، ومن هنا فإنّ تشكل المكان الجغرافي من خلال عملية الوصف وفق نسق وظيفي معين، يظهر أهمية هذا العنصر عند الرحالة، وفعاليته في النص، فبناؤه لم يكن مجانيا، وإنّما انبنى وفق نظام صوغي خاص، على اعتبار أنّ الرحالة كان له غرض التأريخ، فكل المعطيات الحضارية والجغرافية الواردة على شخصية الرحالة -من خلال معاينته المباشرة للفضاءات الجغرافية- توضح ذلك هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربّما تحمل إحالات أخرى، فعملية التأريخ عند الورثيلاني ربّما « تستجيب لإرادة محددة أو قصدية أو زمنية تروم بتجسيد مشروع إيديولوجي»[18]، فمن خلال إنجاز الفضاء الجغرافي لهذه الوظائف، نلاحظ أنه أصبح صلة الدم الجغرافية التي تربط بين مختلف المجتمعات العربية والاسلامية، ومنه تنهض منظومة العلاقات التي تربط بينه وبين الشخوص الذين يعبرونه ومن بينهم الرحالة، فيحمل بذلك العديد من القيم التاريخية والأخلاقية الدينية، وهذه الخصوصية التي يحملها الفضاء الجغرافي، إضافة لخصائصه الطبيعية المميزة وجغرافيته المعقدة، لابدّ أن ينظر إليه على أساس أنّه يمثل تشكلات وتكوينات ومجموعة من البنى والحالات المعرفية والوجدانية، التي « تكون موجودة لدى الأفراد والجماعات، وتسهم على نحو واضح في تحقيق إحساسهم بالهوية الفردية والجماعية»[19]، على اعتبار أنّ الفضاء الجغرافي يدل على الإنسان قبل أن يدلّ على مختلف مكوّناته الاعتبارية الأخرى، ومختلف الآليات التي ينبني عليها، وتأتي عملية الوصف لتحيل إلى مختلف القيم الاجتماعية والتاريخية، لأنّ حضور هذه الفضاءات في الرحلة ليس له أبعاد جغرافية فقط، وإنّما يحمل كمّا كبيرا من المعاني

الاجتماعية والنفسية والأخلاقية، ومن خلال اشتغال عنصر الوصف في الرحلة خصوصا على البلاغي والجمالي، تظهر عبقرية الوصف لدى الرحالة، وكيف استطاع أن يمنح هذه الفضاءات أبعادا مختلفة، فمن البعد التأريخي إلى البعد الاجتماعي والأخلاقي إلى البعد الديني، وهذه الأبعاد المختلفة تجتمع مع بعضها البعض لتشكل الهوية العربية الاسلامية، ومنه فالورثيلاني لم يكن وصفه عفويا، وإنما سار وفق بلاغة معينة تحمل طابعا إقناعيا، يخص المتلقي لمثل هذا النوع من النصوص الإشكالية، التي تحمل الكثير من الإحالات الإيديولوجية والثقافية، والشحنات الدلالية المختزنة في المتن والحابلة بها هذه النصوص السردية، وتستمر عملية الوصف لمختلف الفضاءات الجغرافية، وتمشيطها وفق بلاغة خاصة، تتكأ على جملة من المحفّزات الواقعية، هذه المحفّزات التي تعمل في إطار الاستثمار في كل ما هو عجائبي ومثير للدهشة، فيصف لنا مدينة قسنطينة، هذه المدينة التي ألهمت الكثير من الرحالة والمبدعين والشعراء، عبر حقب زمنية مختلفة فنالت إعجاب زائريها، فيصف المدينة قائلا: « قسنطينة وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدّا ولا صغيرة أيضا وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاثة، باب الوادي، باب الحابية، وباب القنطرة، وفيها بويب صغير يخرج منه الآدمي، وفيها أسواق كثيرة ودكاكين طيبة ومساجد للجمعة نحو الخمسة وبعضها في غاية الإتقان كمسجد الباشا في طرابلس وأظن أن صانعها واحد، وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من يسقط منه أن يهلك بل يموت قطعا واسعة الأرزاق، كثيرة الارتفاق، ممدودة الإنفاق(...) تحتها واد كبير وماءه عذب منه يشربون، إذ ينقلون ماءه إلى الديار وفيه يسقون ويغسلون ويغتسلون وعليه بنيت المدينة من قديم الزمان»[20]، يقدم لنا هذا الوصف صورة بانورامية على المدينة، فيحيل إلى أهمّ المعالم الحضارية في المدينة خصوصا ما يحمل خصوصية دينية وحضارية، وهذا ما نلمسه في عملية وصف البنى الجغرافية، الذي تمّ بطريقة انتقائية ومقصودة، حيث نلمح مباشرة بلاغة خاصة في انتقاء الفضاءات التي تحمل شحنات دلالية، تأدي مهام عديدة على المستوى الحضاري والجغرافي وهذا ما يضمن درجة عالية من المقروئية والاهتمام من قبل المتلقي، وتخلق فيه المتعة والرغبة في متابعة أخبار الرحلة والسفر في مضمارها، وهذا يتمّ عبر الاشتغال على عنصر الوصف، وتشكيله وفق طريقة خاصة، مع تطعيمه بمختلف المحفزات التي تثير القارئ وذلك بتوظيف الأسطوري والغرائبي، ونلمس هذا لما يصل الرحالة إلى مصر، هذه المدينة الأثرية العريقة كان لها حضور خاص ضمن رحلة الورثيلاني، إلى درجة الإعجاب الكبير بها فيقول: « ومن عجائبها في كل شيء أنك إذا رأيت شيئا عظيما ثم رأيت شيئا أعظم منه نسيت الأول ثم كذلك إلى هلم جرا»[21]، وهذا من شأنه أن يدعّم الرأي السابق، ويبيّن غرض الرحالة من سفره هذا، ومختلف الأدوات التحفيزية التي

اعتمدها في عمله السردي هذا، كلما انتقل من فضاء مكاني إلى آخر، يقف الرحالة على هذه المدينة العريقة، ليمنح المتلقي صورة جميلة حولها فيصفها في قوله:

«نعم أحوال مصر داخل المدينة وخارجها كافية في الاعتبار إذ في أصلها وأسواقها ودكاكينها وأزقتها وديارها ووكالاتها وقهواتها ومساجدها ومدارسها وعجائب قرائها وعلمائها وصلحائها وطلبتها وفقرائها وظلامها وبطارقتها وأهل شرطة وجنودها وعساكرها وأمرائها وكثرة خلقها وكذا سحرتها وزناديقها وكذلك كثيرة اليهود فيها والنصارى وكذا مقابرها في الغرافة الصغرى والكبرى وكذا عجائب ما فيها من البنيان وأعجب من ذلك ما فيها من العلماء المؤلفين والأولياء الصالحين ممن يستجاب الدعاء عند الجميع وكذا خارج المدينة ففيه من القصور والغرف وصهاريج من الماء وكذا ما في داخلها من الحمامات والخزانات على أن سعة الديار فيها وعلو أسوارها وتزيينها بالنحاس والذهب والفضة، فبعض الديار إن كان أحد في طرفها والآخر في الطرف الآخر لا يسمع كلامه(...) يكاد المرئي أن تكون عنده الجنة عجائب وغرائب لا تكاد توجد في غيرها من البلدان أيا كانت هذا الذي سمعته بعد أن دمرها الله وغيرها »[22]، لقد كشف هذا المسح الجغرافي والطوبوغرافي لهذه المدينة عن عديد من القيم الحضارية، والتاريخية، والدينية للمدينة، فمن خلال مسح أنثروبولوجي لهذا المقطع الوصفي نلمس فيضا من المعاني والدلالات التي يختزنها من الداخل، من خلال تجاوز البنى الخارجية للفضاء الجغرافي، والولوج إلى مختلف الأنساق الثقافية والإيديولوجية التي يحملها هذا المقطع، والتي تتجلى في المجتمع المصري أنذاك، فهو مجتمع يحمل ديانة إسلامية، ولكن هذا لا يمنع من وجود الديانات الأخرى كاليهودية والمسيحية، والرحالة يريد أن يشير إلى قضية دينية وحضارية مهمة، وهي حوار الديانات في هذه المدينة الإسلامية، التي يتجاور فيها المسلم مع المسيحي واليهودي والقبطي، ويعيشون مع بعضهم البعض في جوّ من الأخوة والتسامح، من هذا المنظور فالورثيلاني أراد من خلال هذا الوصف الدقيق، أن يكشف عن كل هذه الانساق الحضارية من بوابة الوصف، الذي يحتكم إلى عنصري التحفيز والإقناع من أجل سلب اهتمام المتلقي، وإغراءه وجرّه إلى معانقة النص ومحاورته دلاليا.

ويستمر الورثيلاني في اختراق الآفاق والفضاءات الجغرافية، بحثا عن كل ما هو عجائبي وهنا يمتزج الفضاء الجغرافي بالفضاء العجائبي، ليشكّلان معا نصا إشكاليا بامتياز، وذلك بالاتكاء على عنصر التخييل طبعا، الذي بدوره ينطلق أساسا من الفضاء الواقعي للرحلة كمرجعية أساسية، ينهل منها الرحالة مادته، لبناء فضاء الرحلة، وهذا يتمّ عبر بناء بنية لغوية تضاهي البنية الواقعية، وهذه الأسلبة الفنية

تنطلق من خلفية إبداعية أساسية تخص الرحّالة نفسه، وقدرته على جلب اهتمام المتلقي، كما يمتزج العجائبي مع ما هو تاريخي في الرحلة، من خلال وصف الرحالة لمدينة الاسكندرية وعجائبها فيقول: « ومن عجائب الاسكندرية السواري والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ويرمون بالأكراد فلا تقع في حجر واحد منهم إلاّ ملك مصر، وكان يحضر الملعب ما شاء الله من الناس ما يزيد على ألف رجل فلا يكون منهم أحد وهو نظر في وجه صاحبه أن قرأ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من الألوان في ذلك الملعب رأوه عن آخرهم»[23]، فمن بوابة السرد المتتابع وتداخله مع الوصف تتضح بدقة استراتيجية بناء الفضاء الجغرافي في الرحلة، والذي يحتكم في الغالب إلى التقاط كل ما هو وغرائبي ومثير يكسر أفق المتلقين، وطلب الحصول على هذا العنصر يسم أغلب الرحلات العربية، القديمة منها والحديثة، وهذا يدخل ضمن استراتيجية الرحالة، التي تبحث عن كل ما هو متميز وشادّ من مختلف الكتل الجغرافية والمساحات الحضارية المفارقة للبنية الحضارية والعقائدية للرحالة، وهذا طبعا من أجل اللعب على أوتار المتلقين، وخلق أفق جديد لهم، وهذا يكون من بوابة وصف الفضاء الجغرافي، ومنحه بلاغة خاصة وهندسة فريدة تقوم على قصف المتلقي بمجموعة من المحفزات التي تقوم باستدراج المتلقي، ليسقط في فخ الاعجاب بهذا الفضاء والهيام به.

خاتمة:

في ختام هذه المقال يمكن الخروج بجملة من النتائج التي تمثل خلاصة هذا البحث العلمي الذي يخص حقلا معرفيا ونصا إشكاليا، يحبل بالعديد من القيم الحضارية والثقافية التي تخص تلك الفضاءات الجغرافية، التي تكمن أهميتها لا في كونها كتل جغرافية وطوبوغرافية ولكن في كونها وعاء حامل لمختلف الشحنات الدلالية، التي تخفي العديد من الأنساق المعرفية والثقافية والحضارية والإيديولوجية، والجميل في الرحلة أنّ الورثيلاني نقل لنا شهادات صادقة عن تلك الأصقاع الجغرافية، وتضاريسها ومنحها أبعادا تاريخية وحضارية في غاية الأهمية، لأنّها قدمت لنا صورة واضحة عن هذه المدن والجغرافيات وخصوصيات شعوبها، كما أنار لنا الكثير من الحلقات المفقودة حول تاريخ تلك الشعوب وطبائعها وأحوالها وأنماط عيشها، فكان بحق أنثروبولوجي زمانه، وقد أولى الورثيلاني المعالم الأثرية والتاريخية، والأبنية والأزقة والمساجد أهمية كبيرة، لأنّها تمثل خصوصية ثقافية ودينية لتلك الشعوب والمجتمعات الانسانية.

هكذا فإنّ رحلة الورثيلاني من خلال بلاغة وصف الفضاء الجغرافي، تتجاوز الإطار السطحي للغة، لتكسر مختلف الحدود اللغوية والأسلوبية، لتنفذ نحو العمق، وتكشف عن مضمرات هذه النصوص، وما تحمله من أنساق إيديولوجية وحضارية، تحيل إلى ثقافات إنسانية مختلفة ومتنوعة، فهو نص منفتح على قيم دلالية عديدة، وغزير بالمعارف والأخبار التاريخية، ومكثف من الناحية المعرفية، لذلك يبقى بالفعل نصا إشكاليا بامتياز مفتوحا على تأويلات عديدة ولا نهائية.

الهوامش والإحالات:

(1)ينظر أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج2، دار البصائر للنشر والتوزيع الجزائر، 2007، ص394-397.
(2)أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص10-11-12.

(3)المرجع نفسه والصفحات نفسها.

(4)المرجع نفسه: ص9.

(5)المرجع نفسه،ج2، ص398.

(6)جيرار جينيت: حدود السرد، تر: بنعيسي بوحمالة، صمن كتاب(طرائق تحليل السرد الأدبي)، اتحاد الكتاب العرب، الرباط،(د.ط)، 1992.

(7)حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1،1991، ص63.

(8)حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط2، 2009، ص176-177.

(9)حميد لحميداني: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص 79.

(10)سيزا قاسم: بناء الرواية(دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984، ص163.

(11)عز الدين المناصرة: نص الوطن شهادة في شعرية الأمكنة، مجلة التبيين، تصدر عن الجمعية الثقافية الجاحظية، الجزائر، ع1، 1990، ص43.

(12)عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 150.

(13)سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج3، تح: محمد بن أبي شنب، مركز الإمام الثعالبي للدراسات ونشر التراث، الجزائر، ط1، 2011، ص414.

(14)المصدر نفسه: ج3، ص412.

(15)المصدر نفسه:ج3، ص 417.

[16]المصدر نفسه: ج3، ص417-418.

[17]جماعة من الباحثين: الفضاء الروائي، تر: عبد الرحمن حزل، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، د.ط، 2002، ص6.

[18]محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل(مفارقات العرب والغرب)، دار المنتخب العربي، د.ط، 1993، ص41.

[19]عبد الحميد شاكر: الوعي بالمكان ودلالته في قصص محمد العمري، ص250.

[20]سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني: نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ج3، ص450-451.

[21]المصدر نفسه: ج2، ص172.

[22]المصدر نفسه: ج2، ص173-174.

[23]المصدر نفسه: ج3، ص190.